كلمة الأستاذ الدكتور أديب اللجمي
في حفل تأبين المرحوم الدكتور بديع الكسم

بديع الإنسان

أوّلُ لقاءٍ لي مع (بديع) كان سنة ١٩٤٢ في مقهى البرازيل بدمشق، وقد أتى، كما أتيتُ، لينضمّ إلى حلقة يشرف عليها (الأساتذة) إذ كانوا يبشّرون بدعوتهم إلى العمل على بعث الأمة العربية وتحررها وانطلاقها لتواكب حضارة القرن العشرين وتسهم في صنعها.

منذ ذاك اليوم انعقدتْ بيني وبين (بديع) صلةٌ نسجتها مشاعر متبادلة من صداقة وأخوّة واهتمامات مشتركة قومية وإنسانية.

واستمرّت هذه الصلة تزكو مع الأيام، واستمر لقاؤنا طوال ستّين سنة لا يتوقف إلا عندما كان المكان يفصل بيننا.

ولئن كان السعي إلى بلوغ الحقيقة في الفلسفة وفي سواها هو الشاغل الكبير في تفكير (بديع) فإن اهتمامه بالإنسان ومحبته للإنسان كانا محور شخصيته. فقد قدّس الفكر بوصفه قوة تتجه بالإنسان إلى التحرر والتطلع إلى الأسمى وبلوغ الحقيقة. وعنده «أن الإيمان بالحقيقة هو فعل حرّ، وهو وليد التحرر من الأحكام المبيّنة والأفكار المبتسرة». إنه يفترض الإحساس بالمسؤولية تجاه الحقيقة، أي الإحساس بالحرية.

وتقديسه للفكر جعله يحترم فكر الآخرين وحقهم في بلوغ الحقيقة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التي تخالف حقيقتنا. «إن المساومة بالحقيقة خيانة لها. أما التسامح مع الآخرين فهو تقرير لحقيقة عليا تؤكد قيمة الإنسان وحقه في التفكير. إن المؤمن الصادق بالحقيقة يحترم كل باحث صادق عن الحقيقة».

ولأنّ محبّته وتقديره للإنسان هو الأساس فقد أهدى معرفتَه الموسوعية بإخلاص إلى كل راغب فيها أو محتاج إليها، وأفاء معرفتَه على كل من اتصل به، صديقاً كان أم طالباً.

عزف عن جميع الألقاب ومناصب الوجاهة، وأصرّ على أن يبقى أستاذاً جامعياً في حوار متواصل بين فكره وفكر الآخرين. عُرضَ على (بديع) في مناسبات عديدة أن يكون وزيراً أو رئيساً لجامعة دمشق، وكان في كل عرض يجيب بالشكر والاعتذار عن قبول المنصب.

ما من عطاء أو تواصل صدر عن (بديع) إلا كان ينطلق من عمق محبته للناس. «إن المحبة قوة الروح، قوة تزداد كلما أعطت وتشتدّ كلما بذلت... إن المحبة ليست مجرد انفعال ولكنها فعل. أليست هي التي تبذل وتعطي؟ وهل من عطاء بغير حرّية؟ ولا تنفصل المحبة عن العمل، لأن جوهر العمل الذي يقوم به كل منّا إنما هو عطاء للآخرين. إنه قطعة من نفوسنا نقدمها هبة وهديّة».

كانت ندوة الجمعة نموذجيةً في تعبيرها عن محبة (بديع) لأصدقائه ومحبّتهم له، وعن الحرص المتبادل على إغناء الحوار الفكري والوجداني بيننا. ندوة الجمعة أقامها (بديع) منذ بداية السنوات الخمسينات (١٩٥٠) في منزله المطلّ على حديقة السبكي بدمشق. نحن، أصدقاءه ومحبّيه،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كنا نأتي إليه يوم الجمعة من كل أسبوع، بين الساعة العاشرة والثانية عشرة، نتبادل الأفكار والمشاعر في شتّى الموضوعات الفلسفية، القومية، الإنسانية، الشخصية، ويحتدم النقاش، ويخرج بعضنا أحياناً بانتهاء الندوة وقد كسا العرقُ جبينه. واستمرت ندوة الجمعة عند (بديع) حتى الأسبوع الأخير من حياته، بل بتعبير أكثر دقة، حتى آخر يوم، وكان يوم جمعة، قبل أن يُحمَل إلى المستشفى.

محبته للعروبة لم تكن أقلّ تدفقاً من محبته لأصدقائه وطلابه. كانت العروبة عنده في مقام المثل العليا التي كرّس حياته مبشّراً بها. فلما قامت الوحدة بين سورية ومصر سنة ١٩٥٨ كان ذلك أعظم حدث بالنسبة إلى (بديع). رأى في هذه الوحدة بداية إشعاع ينبعث من الأمة العربية ليشمل الأرض كلها. وفي خضمّ هذه المثالية والطوباوية نشر مقالاً سنة ١٩٥٩ في مجلة (مرآة العلوم الاجتماعية) بالقاهرة أقتطف منه الفقرات التالية: «إن وحدة الفكر العربي هي انسجام وتآلف وتجاوب بين المعاني والقيم الكبرى التي يعيشها أفراد الشعب العربي والتي تظهر واضحة في نمط حياتهم وفي مواقفهم الحاسمة تجاه الأحداث... ونحن واثقون أن الحياة الروحية قد بلغت اليوم في نفوس الملايين من الشعب العربي حدّاً من القوة والنضج **والوحدة، لم تبلغه إطلاقاً في شعوب الدول الغربية...** إن القومية العربية ليست مجرد واقع تاريخي واجتماعي، ولكنها فوق ذلك **عقيدة**. والحقّ أن فلسفة القومية العربية تعني أول ما تعني أن القومية العربية نفسَها **فلسفةٌ**، أي نظرةٌ شاملة متفتحة، ذات قيمة حضارية، وموقفٌ واع مسؤول

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يحمل رسالة **إنسانية**... إن دعوة القومية العربية نداءٌ للعرب جميعاً لكي يحرّروا كل بقعة عربية من النفوذ الأجنبي، ولكي يقيموا دولتهم الواحدة إلى جانب الدول في العالم. ودعوة القومية العربية ثانياً بوصفها دعوة عربية قد أدركت بأن مشكلات كل قطر من أقطارنا لا تجد حلاً كاملاً لها إلاّ في ضوء الوحدة العربية. ودعوة القومية العربية ثالثاً هي بوصفها دعوةً إلى خلق أمة تحقق لأفرادها كرامةَ العيش في ظلّ الحرية والعدالة والأمن والقدرة على الارتقاء، وتقدّم للعالم مثالاً حيّاً لمضمون الحياة القومية، **أي فلسفة حضارية وأخلاقية قادرةً على إلهام كل قومية على الأرض**».

ذلكم كان أخونا وحبيبنا الدكتور بديع الكسم في صفاء مثاليته وأمنياته.

العزاء كلّ العزاء إلى شريكة حياة (بديع) فقد كانت معه طوال حياته في السرّاء والضرّاء.

العزاء والصبر الجميل إلى الدكتور نزار والدكتور بدر والدكتور عبد الرؤوف وسائر آل الكسم.

سلام على (بديع) في نبله وصفاء نفسه.

سلام على (بديع) وهو اليوم بين يديْ الحقّ.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net